بسم الله الرحمن الرحيم

الملتقى الدولي حول (فكر مالك بن نبي)
المجلس الإسلامي الأعلى - الجزائر -

الدكتور محمد بن سمينة
جامعة الجزائر

المقدمة :

يحرص المجلس الإسلام الأعلى بالجزائر على تنشيط الحياة الفكرية والإسهام في عملية مد جسور الحوار والتواصل بين الهيئات الثقافية والمهتمين بهذه المناحي في البلاد، وبين هؤلاء وبين أمثالهم في الخارج، وذلك من خلال ما فتىء هذا المجلس الموقر يصدره من نشرات ودراسات وكراسات، وما ينظمه من أيام دراسية وندوانت ومحاضرات، وما يعقده من ملتقيات وطنية ودولية، تتبادل في جلساتها الاراء، وتتقادح من على منبرها الأفكار بين الباحثين والدارسين من داخل البلاد ومن خارجها من نحو ، وبينهم وبين المعنيين بهذه الاهتمامات من الجمهور من نحو ثان.

ويدور الحوار أثناء ذلك حول بعض القضايا التاريخية والفكرية والاجتماعية المتصلة بعطاءات الأمة ماضيا. وباهتماماتها حاضرا، وبتطلعاتها مستقبلا...

وكان اخر ما أشرف المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر على تنظيمه من ملتقيات:

(الملتقى الدولي: حول فكر مالك بن نبي) المنعقد بفندق الأوراسي بالجزائر

العاصمة، ففي الأيام (23 ـ 24 ـ25 شعبان 1424 هـ/ 18ـ 19ـ 20 أكتبور 2003). وذلك إحياء للذكرى الثلاثين لوفاة المفكر الجزائري الأستاذ مالك بن نبي رحمة اللّه عليه، وقد شارك في أشغال هذا الملتقى عدد من الباحثين من أهل الدار، ومن بعض الذين وفدوا على الجزائر من العالم العربي الإسلامي، ومن غيره من بعض دول العالم: من المغرب، ومصر، ولبنان وماليزيا وباكستان، وفرنسا، وأمريكا.

وقد دار الحوار خلال تلك الأيام الثلاثة للملتقى في مجموعة من المحاضرات تركز الحوار فيها حول جملة من المسائل والقضايا المتصلة بحياة الأستاذ مالك بن نبي وأفكاره وأعماله وصلة ذلك بحركة النهضة الحديثة في العالم العربي الإسلامي، وعلاقتها بنهضة الأم الأخرى.

وقد حضر صاحب هذه الكلمة أعمال هذا الملتقى، وكانت هذه السطور من أصداء ذلك وسيتركز الحديث فيها حول العناصر التالية :

أولا ـ نبذة عن الأستاذ مالك بن نبي وأعماله

ثانيا ـ الحضور الجزائري في هذا الملتقى

ثالثا ـ مشاركة الباحثين الضيوف في أعمال الملتقى

رابعاـ وقفة متأنية عند محاضرة الأستاذ حسن حنفي

خامسا ـ مكانة اللغة العربية في الملتقى

سادسا ـ الأستذ مالك واللغة الفرنسية

سابعا ـ الجانب التنظيمي في الملتقى

ثامنا ـ الخاتمة

وتأتي هذه الكلمة إلى النظر ف في هذه المحاور وفق الخطة المتقدمة:

أولا ـ نبذة عن الأستاذ بن نبي وأعماله: الأستاذ مالك مفكر جزائري معاصر (1905 / 1973) قضى حياته يشتغل بقضايا الفكر والثقافة الإنسانية، وشروط

النهضة ومشكلات الحضارة، وعني في هذا الإطار بدراسة العوامل التي ساعدت وتساعد المسلمين على بناء ذاتهم وتقويم فاعليتهم في الميدان العملي، وترشيد عطائهم الأخلاقي والعلمي والفكري والحضاري، وما إلى ذلك مما استطاعوا به أن يتركوا بصمات إسهاماتهم المميزة في بناء منظومة الحضارة الإنسانية، كما حرص الفقيد في الوقت ذاته على رسم علامات واضحة عن الأسباب التي كانت من وراء انحسار مد حضارة المسلمين في العصر الحديث وما انتهوا إليه في حاضرهم من تشرذم وتخلف، وذل وهوان !

ويخلص الأستاذ مالك من هذا التحليل العلمي والتشخيص الموضوعي الدقيق لوضعية المسلمين في العصر الحاضر، ولما ينخر جسم أمتهم من علل وأدواء، إلى وصف الدواء الناجع لتلك الأدواء، وذلك بدعوته قومه دعوة صادقة مخلصة تحثهم على النظر في أوضاعهم الحالية بمنهج نقدي يضع أيديهم على العوامل التي كانت المرتكز الأساسي في بناء حضارتهم، ويحرص في الوقت ذاته إلى ما يجنبهم الأسباب النقيضة التي أردت بهم إلى المنعطف لذي انحدروا إليه فعسى أن يمكنهم ذلك من استعادة وعيهم الحضاري ودورهم التاريخي فيأخذوا مكانتهم التي كانت لهم يوم أن كانوا يمثلون العالم الأول بين الأمم الحية « لايصلح اخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» (1).

للأستاذ مالك مجموعة من الأعمال تركزت عنايته فيها على معالجة جملة من القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية المتصلة بشروط النهضة، ومشكلات الحضارة، وأدواء التخلف وعوامل التقدم، وغير ذلك من مسائل الفكر والثقافة والاجتماع والسياسة.

وقد كتب الفقيد معظم أعماله ضمن سلسلة (مشكلات الحضارة) ومن من بين تلك الأعمال :

(الظاهرة القرانية ـ شروط النهضة ـ ميلاد مجتمع ـ وجهة العالم الإسلامي ـ مشكلة الثقافة ـ فكرة الإفريقية الأسيوية ـ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ افاق جزائرية ـ مذكرات شاهد القرن ـ وغيرها...)

كما أن للأستاذ مالك تلامذة وقراء ودارسين فأفكاره وأعماله في كثير من بلدان العالم (من طنجة إلى جاكرتا، ومن موسكو إلى واشنطن).

ثانيا : الحضور الجزائري في أشغال الملتقى : لقد شارك في هذا الملتقى بعض الجزائريين من داخل البلاد، ومن خارجها: من المقيمين في ديار الغربة بفرنسا.

وقد كانت هذه المساهمة لأهل الدار بنوعيها الداخلية والخارجية في معظمها محدودة في عددها، متواضعة في أبعادها، معرب لسان بعضها، مستغرب لسان معظمها، وبخاصة منها تلك التي تعود للمغتربين.

أما عما يتصل بالعدد فقد كانت محاضرات أصحاب الدار ثماني من بين سبع عشرة محاضرة، هي : مجموع ما ألقى في الملتقى، أي كانت نسبتها أقل من (50٪) من المشاركة العامة. ومع أن الجهد العلمي لا تقدر قيمته بالعدد فحسب، فإن له مع ذلك بعض الاعتبار في مثل هذا المقام.

وأما مايتعلق بالنوعية فقد كانت تلك المحاضرات في معظمها متواضعة في جانبها العلمي من حيث ما اتسم به هذا الجانب من طروحات، وما أخذ به من طرق المعالجة، وما اتصف بع في أغلب ما تطرق إليه من تكرار، ويمكن أن يتضح ذلك بشيء من الموازنة مابين ذلك النوع من المشاركة، وبين ما تميز به المستوى العلمي في محاضرات معظم الضيوف، ولاشك أن الذي يكون قد فعل ذلك يسهل عليه أن يلمس ذلك الفرق.

وأما أداة التعبير في مساهمة (أهل الدار) فقد كانت في بعض أعمال المقيمين، وفي مجمل المحاضرات الأربع للمغتربين بالفرنسية، ما خلا واحدة منها فقد كانت

باللسان العربي وهي محاضرة الدكتور مولود عويمر الأستاذ بالمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية (فرنسا)، الذي كتبها وألقاها بالعربية، وإذن فإن نسبة العربية إلى الفرنسية في محاضرات هؤلاء كانت 1 / 4 أي (25٪).

وأما ما كان من نصيب أهل الدار وحدهم من أعمال الملتقى لم يشاركهم فيه غيرهم، فلم يتجاوز ذلك أو يكاد الجانب التنظيمي وعملية الإشراف على سير الجلسات، وهذا أمر طبيعي وإن هذا الجانب ـ كما هو واضح ـ يكاد يقتصر دوره على الناحية التنظيمية من أشغال الملتقى وقد تم ذلك في مجمله ـ على أية حال ـ بصورة اتسمت في غالبيتها بقدر ملموس من النظام والإحكام.

ويمكن القول أنه لولا ما كان من تلك المشاركة للجمهور ـ ومعظمه من أهل الدار ـ المتمثلة في بعض التعقيبات والاستفسارات، تلك التي أضفت بما تخللها من جدية في المتابعة ورغبة في الفهم جوا من الحيوية والنشاط على سير أشغال الملتقى، لو ما كان من تلك المشاركة المثمرة لكان صوت أهل الدار أضعف الأصوات في هذه المناسبة.

ويتلامح أمام المتأمل في ذلك هذا السؤال: أين هم إذن تلامذة مالك بن نبي بيننا وأين هم قراء أعماله في مجتمعنا؟ وأين هي مساهمتهم أمام ما كان من مساهمة غيرهم في هذا الملتقى؟!

ولعل من بين ما يمكن أن يصلح للإجابة عن هذه الأسئلة، أن مالك عاش غريبا في بلده غير معروف المعرفة اللازمة بين المتعلمين من أهله وذويه، أما لدى غير هؤلاء من أوساط العامة، فإن صورة هذه الظاهرة أوضح وأعم وأدعى للخجل ! وإنك ـ أيها القارىء الكريم ـ إذا أردت أن تتأكد من هذه الحقيقة فما عليك إلا أن تجرب أن تحدث أحد هؤلاء عن مفكرنا الأستاذ مالك، فإنك بمجرد ما تبادر بذكرك له اسم مالك، لحسبك أنك تحدثه عن أحد الأعلام من القرون الأولى في تاريخ

الإسام، مما يضطرك إلى الاستدراك فتوضح لمحدثك بأنك تتحدث عن مفكر جزائري معاصر اسمه مالك بن نبي ، فينصت إليك حينئذ مغتبطا وأنت تحدثه عن مفكر جزائري اسمه (مالك بن نبي !) وتسلمنا هذه الحقيقة إلى هذا التساؤل لماذا كانت مكانة مالك في قومه كذلك؟

يمكن القول أن مرد ذلك إلى عوامل عديدة: تأتي على رأسها تلك الظروف الاستثنائية التي عاش الشعب الجزائري يصلى نارها في جحيم حكم الاحتلال الفرنسي الذي سخر كل ما بين يديه من وسائل المكر والكيد لإبقاء الجزائريين بين مخالب الجهل وأنياب الأمية، والعمل على حرمانهم من كل الأسباب التي تساعدهم على أخذ حقهم من عطاءات العلم والمعرفة، كما كانت سلطات الاحتلال تصدر من القوانين البوليسية والإجراءات التعسفية ما يساعدها في عملية التعتيم على أعلام الأمة ومحاولة تقزيمهم، وملاحقتهم وتحديد مجال حركتهم، وكان من بين من كان من هؤلاء محل رصد ومتابعة وتعتيم من طرف سلطات الاحتلال، الأستاذ المفكر مالك الذي كانت دوائر الغزو الفكري من ورائه حيثما حل، وحيثما ارتحل، مما كان لذلك من الانعاكاسات السلبية التي تتبدى فيما كان ينتابه من الهواجس الفكرية والإضطرابات النفسية التي كانت تعتريه بين الحين والاخر.

وكان لهذه المتابعات والملاحقات التي كان الفقيد في معظم مراحل حياته عرضة لامتحاناتها ما كان لها من دور خطير في عملية التعتيم عليه في بلده، وتهميشه بين أهله وذويه.

ونخلص من رسم هذه الخطوط العريضة من تلك الصور الباهتة في ملامحها، المحدودة في أبعادها التي تبرز مشاركة أهل الدار في أعمال هذا الملتقى، إلى القول بأن هناك صورة أخرى تقابلها أكثر تركيزا وأعمق تحليلا وأبعد مرمى، تلكم هي التي ترسم أبعادها مساهمات الإخوان الضيوف في الملتقى، فماذا عن ذلك؟

ثالثا ـ مشاركة الباحثين الضيوف في أعمال الملتقى : لقد تميزت محاضرات معظم المشاركين الضيوف بالتنوع في موضوعاتها والعمق في تحليلاتها، ويمكن التدليل على ذلك بالإشارة إلى بعضها من مثل : (أثر الفكرة الدينية في فكر مالك ـ د / عبد السلام الهراس ـ المغرب) (فكرة كومونويلث إسلامي ـ د / محمد نور منوطي ـ ماليزيا) (مالك بن نبي ومعاييره للتنوع الثقافي ومشكلات الحضارة ـ د/ أسعد السحمراتي ـ لبنان) (عالمية الثقافة في فكر مالك بن نبي ـ د / عمر مسقاوي ـ لبنان) د/ محمد الطاهر الميساوي ـ تونسي ـ ماليزيا) (من القصد إلى الفعل: محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي ـ د / حسن حنفي حسنين ـ مصر).

وإن أبرز ما يمكن أن يستخلص من هذه المشاركة النوعية لهؤلاء الباحثين أن لمالك بن نبي تلامذة ودارسين كثيرين في غير قليل من بلاد العالم العربي الإسلامي، وغيرها من بلدان العالم ممن درسوا أعماله واستوعبوا أفكاره وتحمسوا ـ وما يزالون متحمسين ـ لتجسيدها في مناهجهم العلمية وارائهم الفكرية، في نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

ونبادر بالقول أن محاولة النظر في جميع محاضرات هؤلاء الباحثين تستدعي فضاءا لا يمكن أن يتسع له صدر هذه الكلمة لأكثر من سبب، وعليه فإن الحوار في هذه الفقرة المتصللة (بمشاركة الضيوف) سيقتصر على النظر في واحدة من تلك المحاضرات، وهي محاضرة الأستاذ الدكتور حنفي، أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة، وباحث معروف على الساحة الفكرية في العالم العربي الإسلامي، له إسهاماته المتميزة وأعماله القيمة في مجال تخصصه.

وقد وقع الاختبار على الوقوف وقفة متأنية عند هذه المحاضرة دون سواها، مما سبق

ثالثا ـ مشاركة الباحثين الضيوف في أعمال الملتقى : لقد تميزت محاضرات معظم المشاركين الضيوف بالتنوع في موضوعاتها والعمق في تحليلاتها، ويمكن التدليل على ذلك بالإشارة إلى بعضها من مثل: (أثر الفكرة الدينية في فكر مالك ـ د / عبد السلام الهراس ـ المغرب) (فكرة كومونويلث إسلامي ـ د / محمد نور منوطي ـ ماليزيا) (مالك بن نبي ومعاييره للتنوع الثقافي ومشكلات الحضارة ـ د/ أسعد السحمراتي ـ لبنان) (عالمية الثقافة في فكر مالك بن نبي ـ د / عمر مسقاوي ـ لبنان) د/ محمد الطاهر الميساوي ـ تونسي ـ ماليزيا) (من القصد إلى الفعل: محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي ـ د / حسن حنفي حسنين ـ مصر).

وإن أبرز ما يمكن أن يستخلص من هذه المشاركة النوعية لهؤلاء الباحثين أن لمالك بن نبي تلامذة ودارسين كثيرين في غير قليل من بلاد العالم العربي الإسلامي، وغيرها من بلدان العالم ممن درسوا أعماله واستوعبوا أفكاره وتحمسوا ـ وما يزالون متحمسين ـ لتجسيدها في مناهجهم العلمية وارائهم الفكرية، في نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

ونبادر بالقول أن محاولة النظر في جميع محاضرات هؤلاء الباحثين تستدعي فضاءا لا يمكن أن يتسع له صدر هذه الكلمة لأكثر من سبب، وعليه فإن الحوار في هذه الفقرة المتصللة (بمشاركة الضيوف) سيقتصر على النظر في واحدة من تلك المحاضرات، وهي محاضرة الأستاذ الدكتور حنفي، أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة، وباحث معروف على الساحة الفكرية في العالم العربي الإسلامي، له إسهاماته المتميزة وأعماله القيمة في مجال تخصصه.

وقد وقع الاختبار على الوقوف وقفة متأنية عند هذه المحاضرة دون سواها، مما سبق

الإلماع إليها، لما تميزت به هذه المحاضرة من (إثارات) فلربما جعلها ذلك تحتاج أكثر من غيرها إلى شيء من النظر والتحقيق، فإلى ذلك :

رابعا ـ وقفة عند محاضرة الأستاذ حنفي وهي بعنوان : (من القصد إلى الفعل: محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك).

لعل من أبرز ما تميزت به هذه المحاضرة: منهجية الطرح وعمق التحليل ووفرة الأفكار وحسن الإلقاء المشوب باللهجة الخطابية التي تزوده بشحنة من فاعلية التأثير على نفوس المتلقين وهذه السمة الأخيرة بخاصة يبدو أن إخواننا في أرض (النيل) يتوفرون على قدر منها أكبر مما يتوفر عليه من ذلك غيرهم من أبناء العربية في جميع أقطارهم، ولعل لماء النيل أثرا في ذلك.

وقد تميزت هذه المحاضرة ـ إلى جانب ذلك ـ بجملة من الإيماءات، ولربما هي غمزات أكثر منها إيماءات وإثارات، من بينها:

1 ـ المطالبة من المخاطبين بالانتقال من المدح إلى الفعل.

2 ـ التوجه بالخطاب الى (أحفاد مالك)

3 ـ الزعم بأن معظم أعمال مالك مقالات صحفية

4 ـ القول بطغيان النزعة الإنشائية في كتابات مالك

5 ـ الإشارة إلى إهداء مالك كتبه إلى بعض الشخصيات

6 ـ الزعم بأن مالك يعني بقضايا بلده أكثر من عنايته بقضايا بلاد المسلمين

7 ـ الادعاء بمحاولة الأستاذ مالك التسجيل في شهادة (الدكتواره) وفشله في ذلك

8 ـ المحاضرة موضوع هذه الوقفة لم توزع

هذه هي أهم الهمزات أو اللمزات التي تضمنتها محاضرة الأستاذ الدكتور حنفي ويتجلي بعض ذلك بدءا من عنوانها (من القصد إلى الفعل..) وإن المتأمل

في العنوان كاملا ، قد يستشف بعض ما يومىء إليه ذلك العنوان من معاني، نجتزىء بالإشارة إلى اثنين منها :

أما الأولى فلربما يراد منها الإشارة إلى أن بعض الناس يقصدون، يريدون، يتمنون... ولكنهم لا يحركون ساكنا ولا يعملون عملا جادا، مكتفين فحسب بالأماني والتعلات والأحلام.

ولعل من بين من تعنيهم بالخطاب هذه الإشارة هم (الحضور).

أما الثانية فلعل دلالتها تبرز من خلال الجزء الثاني من العنوان وهو (... محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي) مما قد يراد به من أن تناول مالك لهذه المشكلات كان ناقصا ومن ثم فإن ما أقامه من بناء في هذا الميدان، يحتاج إلى غير قليل من التقويم والتصويب وإعادة البناء!

ونخلص من هذه الوقفة العجلى عند بعض ما يمكن أن يكون قد رمز إليه ما جاء في عنوان المحاضرة من دلالات، إلى ما جاء من ذلك في صلب هذه المحاضرة، فماذا عن ذلك ؟ وماذا عما يريد حضرة الأستاذ أن يمكن له من خلال ذلك في نفوس الحضور؟

يمكن الإجابة عن ذلك من خلال مناقشة تدفعها رغبة ملحة إلى الاقتراب من وجه الحقيقة في هذه الإشكالية خدمة للعلم، ولا تتوخى شيئا آهر غير ذلك ، فإلى ذلك:

1 ـ لقد استهل الأستاذ محاضرته مطالبا بالانتقال من (المدح إلى الفعل) :

وقد ألح حضرته على هذا الطلب بما يوحي أنه يظن أن الجزائريين ـ وهم يحيون هذه الذكرى الثلاثين لأحد رجالاتهم بعد ثلاثين سنة على انتقاله لى رحمة اللّه ـ قد ذهبوا في مدحه بعيدا وبالغوا في إطرائه أكثر من اللازم، يقول ذلك بلهجة يمكن

أن يستشف منها المتأمل في بنيتها وطريقة أدائها، أن حضرة الأستاذ قد جانبه وجه الصواب في هذه القضية، كما يبرز ذلك من نحو اخر، أنه غير ملم بمافيه الكفاية بما يتصل بالظروف والملابسات التي كانت تكتنف مسيرة الفقيد الذي قضى معظم مراحل حياته في دائرة تكاد تكون مغلقة، تحيط بها أسوار التعتيم من كل الجوانب، وتخيم على ساحتها غيوم النسيان من كل الجهات، لقد عاش مالك ـ رحمه اللّه ـحيا وميتا في هذه الأجواء المكفهرة بالغيوم ، المدلهمة بالضباب، كما أن أعماله ظلت زمنا طويلا بعيدة عن التداول في الساحة الثقافية في بلاده، قليلة التناول من طرف أبناء شعبه من المتعلمين بله غيرهم، ذلك أن هذه الأعمال لم تعرف طريقها إلى النور بينهم إلا في حدود جد ضيقة، ما كانت تأخذ حقها من الدرس والنشر، لو لم يقيض اللّه لها من عني بها ممن عرف قيمتها العلمية فأخرجها إلى النور من إخواننا بالمشرق العربي،، وبخاصة في مصر وسورية ولبنان، وببعض البلاد الإسلامية، خاصة منها (ماليزيا). لولا هذه العناية الإلهية لظل الكثير من أعمال مالك مجهولا لدى أهله وذويه قبل غيرهم.

وإذن فأين مانال من ذويه الأقربين ومدح وإطراء، وقد رأيناه أنه عاش على تلك الصورة التي رأينا بين غالبيتهم مجهولا مغمورا، وغير معروف إلافي أوساط ضيقة لدى بعض الخاصة منهم على وجه الخصوص؟

فكيف إذن وهذه هي حال الفقيد مالك، وحال أعماله في بلده وبين عشيرته، ويأتي من يستكثر على مالك أن تحيي بلده ذكرى رحيله بعد مرور ثلاثين عاما على ذلك الرحيل، كما يستكثر هؤلاء المستكثرون أيضا أن يلتقي بعض تلامذته وقرائه ودارسيه من داخل الجزائر ومن خارجها بعد ثلاثين عاما على رحيله ليحيوا ذكراه، وليتبادلوا الرأي حول أفكاره، ويتدارسوا أعماله فيما بيهم، وبين عامة جمهور قرائه،

وليتعاونوا على توطيد أسباب الصلة بينه وبينهم كما تكون هذه الصلة عادة ـ تقديرا ـ ومحبة ووفاء ـ بين التلامذة وبين أستاذهم ومعلمهم.

ويبلغ الغلو مبلغه بأولئك المستكثرين (ذاك القليل)، مما أبداه إخوان مالك وبنوه وأحفاده نحوه من وفاء وتكريم وثناء! ومهما يكن مما وصلت إليه المعاني من درجة على سلم هذه القيم النبيلة، فإن ذلك سيبقى قليلا في حق ذاك الذي أعطى من عقله وقلبه إلى أمته والإنسانية من قبل ومن بعد (الكثير)، ومع ذلك يأتي من يطلب من الجزائريين أن يقتصدوا في التفضل بذاك (القليل) لمن أعطى (الكثير)، فيطلبون من الجزائريين: القصد في ذلك، القصد، القصد أيها الجزائريون، فقد ذهبتهم بحبكم ووفائكم وتكريمكم لأحد أعلامكم (أعلام الأمة) وإحيائكم لذكراه لأول مرة بعد ثلاثين عاما على رحيله، لقد ذهبتم بذلك بعيدا.. بعيدا بعيدا..!؟

2 ـ كان حضرة الأستاذ قد توجه بالخطاب في مداخلته تلك، إلى من أسماهم (أحفاد مالك) وقد كرر هذه العبارة في محاضرته أكثر من مرة، يترجى بها من أولئك (الأحفاد) أن يعملوا شيئا على طريق العلم والفكر، وكأنه يريد أن يومىء بذلك إلى من سبق هؤلاء الأحفاد لم يكن لهم في ذلك الميدان ما يذكر فيشكر!

فمن هم هؤلاء (احفاد مالك؟) وما دلالة هذه العبارة في هذا المقام؟ وماهي الرسالة التي يريد حضرة الأستاذ أن يوصلها من خلال ذلك إلى هؤلاء الأحفاد؟

يظهر أن الأستاذ يقصد بتلك العبارة: (أحفاد مالك) الجيل الثالث من بعد مالك، إذ أن هناك (جيل مالك) و(جيل الأبناء) ثم يأتي من بعد ذلك (جيل الأحفاد) ، وكأن الأستاذ يريد بذلك أن يومىء إلى أن المجهود العلمي للجيلين: الأول والثاني، جيل مالك، و(جيل الأبناء) الذين يمثلون (الزمن الحاضر) من الجزائريين، إن جميع أو معظم من يمثل هذين الجيلين، لم يتحقق ـ من خلال ما

يفهم من كلام حضرة الأستاذ ـ على أيديهم في المجال العلمي والفكري بخاصة، وغير ذلك من المجالات الأخرى ما يمكن أن يسمو إلى الدرجة المطلوبة، وإن كان بالإمكان أن يتحقق شيء من ذلك في يوم من الأيام، فقد يكون ذلك على أيدي أولئك الأحفاد (أحفاد مالك).

ويترتب على هذه التخمينات أن ينتظر الشعب الجزائري حوالي ربع قرن من الزمن حتى يظهر من بين أفراده ـ أحفاد مالك ـ هؤلاء الذين لعلهم يستطيعون أن يفعلوا شيئا في ميدان العلم والمعرفة، لعلهم وعساهم!

ومما يمكن أن يستنتج من هذه التأويلات أن نظرة الأستاذ إلى هذه الإشكالية تطغى عليها نزعة تشاؤمية من حاضر الجزائر ومن مستقبلها، وسبحان اللّه الذي لا يعلم الغيب سواه.

ومهما يكن من ذلك، فإن الجزائريين ـ على أية حال ـ لم يزعموا يوما أنهم وصلوا إلى غايتهم على طريق جهادهم في طلب العلم، وهم مؤمنون إيمانا صادقا بقول ربهم، رب العالمين في كتابه العزيز : « وقل رب زدني علما» [2].

وحسبهم أن نيتهم معقودة على حب الخير وفعله، وأن قلوبهم عامرة بالتفاؤل والأمل وأن طموحهم كبير، وأن ثقتهم أكبر، في عون اللّه وتوفيقه لهم على السير في هذا الطريق اعتزازا بماضيهم وسموا بحاضرهم، واستشرافا لما يشرق من بعده ـ إن شاء اللّه ـ من مستقبل عزيز كريم.

3 ـ يرى حضرة الأستاذ أن أعمال (مالك) إن هي إلا مجموعة مقالات صحفية!

فماذا يريد حضرته من هذا الحكم؟ وما يمكن أن يستنتج منه ؟

يبدو أن المقصود من هذه (الغمزة) أن يشيع صاحبها بين الحضور أن أعمال

مالك من قبيل ما يكتب في الصحافة السيارة، وهي من ثم لا ترقى إلى مستوى الأبحاث العلمية الأكاديمية المعمقة، وماذاك إلا أنها كتابات صحفية، لايمكنها أن تتجاوز هذه الحدود وتتطلع إلى مستوى تلك الدراسات العلمية الرفيعة التي يكتبها (بعضهم) في جامعاتنا العربية، ـ ما شاء اللّه ـ تلك الجامعات (الهياكل) المترامية الأطراف هنا وهناك في أرضنا العربية ولكنها من حيث التناج العلمي والنشاط الفكري ليس لها ـ لأسباب متعددة ـ ذلك الدور العلمي الذي نهضت وتنهض به كثير من الجامعات في العالم، ذات الفاعلية في حركة الحياة العامة في الأمم المتطورة، بما جعل إسهام معظم جامعاتنا العربية عمليا وعلميا في مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وحركة التطور العلمي، والتحكم في وسائل التقنية الحديثة محدودا جدا، بالمقارنة مع ما تخرجه للناس دوريا الجامعات الأخرى في العالم من مختلف الابتكارات والمنتجات الحضارية، وقد انعكس ذلك الاعتلال وذلك الهزال الذين أصابا جامعاتنا على صورتها العلمية في المحافل الأكاديمية العالمية، فبدت باهتة مغيمة، كما انعكس ذلك على صوتها فيما يجري في تلك المحافل من حوارات ومناقشات، فكان خافتا ومبحوحا حتى لا يكاد يبين.

وماذا بعد يضير الأعمال الجادة العميقة كأبحاث الفقيد مالك أن تنشر في بعض الدوريات أو الصحف، والحال أن نشر أعمال أي باحث أو مفكر أو عالم في بعض الصحف لا ينقص في حد ذاته من القيمة العلمية لها، لدى الباحثين المنصفين، إذا كانت هذه الأعمال في جوهرها كذلك بمحتواها وبمنهجها وبطرق المعالجة فيها. وإن الأمثلة على هذه الحقيقة عديدة في سجلات التاريخ وفي جنبات الحاضر وفي أكثر من نموذج. من ذلك أن بعض العلماء المحققين وبعض المفكرين المستنيرين، كانوا قد نشروا بعض أعمالهم بدءا في الصحف، ثم أخذت تلك الأعمال مكانها في بعض المراجع التي تعنى بمعالجة بعض القضايا الفكرية العميقة والنظريات الفكرية العميقة والنظريات العلمية الطموحة، مما خولها بأن تكون منطلقا للدارسين

في أبحاثهم ،فوصلوا على نهج فروضها إلى اراء فكرية عميقة وضوابط علمية جادة.

ومن أقرب الأمثلة على ذلك من زماننا، ومن بلاد الغرب، أجل من بلاد الغرب، لأن بعض من يسمون أنفسهم في بلادنا العربية (بالمفكرين المستنيرين) لاينكسون رؤوسهم منبهرين ومشدوهين إلا أمام كل مايفد علينا من (الغرب) مادة كان ذلك أو معنى، ولعل من أقرب هذه الأمثلة إلينا، على ذلك المقال الذي نشره المفكر الأمريكي (هنتغتون ـ huntington) في الصحف بعنوان (صراع الحضارات)، أو المقال الذي نشره المفكر الياباني أصلا الأمريكي موطنا (فرانسيس فوكوياما) حول فكرة (نهاية التاريخ).

وقد ظهرت هاتان الفكرتان أول ماظهرتا على صفحات الجرائد، ثم انتقلتا منها إلى صفحات الكتب، فصارتا من المرجعيات الفكرية التي انطلق منها الباحثون في دراسة تطورات افاق مستقبل الحضارة الإنسانية.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، أو ما يقرب من ذلك ـ ولكن من محيطنا هذه المرة ـ ما تفتقت عنه قرائح بعض أعلام أمتنا في مطلع هذا العصر، من أحاديث هامة في قضايا الفكر والاجتماع والسياسة والأدب، وكانت تلك الأبحاث قد ظهرت أول ما ظهرت أيضا في بعض صحف تلك الفترة من أهمها : مجلة (العروة الوثقى) التي قد كان أصدرها المصلحان الكبيران: (الأفغاني ومحمد عبده) في بلاد الغرب في (فرنسا) بتاريخ (31 مارس 1884) وتوقفت بعد صدور عددها الأخير يوم (17 أكتوبر 1884) ثم مجلة (المنار) التي أصدرها المصلح الكبير (محمد رشيد رضا) في مصر بتاريخ (15 مارس 1886) واستمرت في الصدور إلى وفاته (1953) ثم مجلة (الرسالة) التي أصدرها الأديب الكبير (أحمد حسن الزيات) في مصر بتاريخ (10 جانفي 1932) وصدر العدد الأخير منها في (ديسمبر 1953). وغير ذلك من الصحف والمجالات المشرقية.

وكان من أثر ما نشر أولئك الأعلام الرواد وغيرهم في تلك الدوريات من أبحاث قيمة وأفكار صائبة.

وعلى هذا الدرب، وفي أحضان مثل تلك الصحف، تتابعت إنجازات الرعيل الثاني من أعلام النهضة الفكرية والأدبية في المشرق، من أمثال: الرافعي والعقاد والزيات وطه حسين وهيكل والمازني وغيرهم.

ويمكن أن يتجلى هذا المثال عندنا في الجزائر، فيما كان قد نشره أعلام النهضة الوطنية: مصلحين وأدباء وسياسيين، من أعمال في صحف مرحلة النهضة، وبخاصة منها: (المنتقد) التي أصدرها الإمام عبد الحميد بن باديس، رائد النهضة الوطنية، بتاريخ (02 / 07 / 1925) فكانت الفاتحة الميمونة والانطلاقة الرشيدة على درب النهضة الوطنية العامة، إلا أن المحتلين لم يطمئنوا لظهور (المنتقد)، ولم يرقهم منهجها الوطني الحضاري، ولم يطيقوا صبرا على توجهاتها الوطنية، وما تستهدفه من مرام وأهداف حضارية، فسارعوا إلى وأدها وهي في في المهد صبية بنت شهرين وعشرة أيام، فلم تكتحل عيناها بمرأى التضحيات التي أرست الطريق أمامها لترى نور الحياة، ولا اكتحلت عيون الأمة بضيائها لأكثر من ثمانية عشر عددا فكانت هذه الثمانية عشر عددا « في بنيان النهضة ثمانية عشر سندا» (3)

وإنه لمن المصادفات العجيبة في هذا المضمار أن يكون مصير (المنتقد) كمصير (العروة الوثقى) التي كان الفرنسيون في باريس من قبل، قد ضاقوا بتوجهاتها وبأهدافها ذرعا، فأوقفوها هي الأخرى، ولم يتجاوز عمرها (كالمنتقد) ثمانية عشر عددا.

بيد أن هذه السياسة الجائرة لم تثن عزم ابن باديس على مواصلة جهاده في هذا الميدان، فلم يلبث أن أصدر (الشهاب) في السنة نفسها (12 / 09 / 1925) فأحيا اللّه بها (المنتقد الشهيدة) وحفظها وأطال في عمرها، فاستمرت في الظهور إلى (أوت

1939) كما لم تثن تلك السياسة الجائرة نفسها من قبل، الشيخ محمد رشيد رضا على أن يواصل مسيرة شيخه محمد عبده وأستاذ شيخه السيد جمال الدين الأفغاني فيصدر (المنار) على طريق العروة الوثقى بعد مرور حوالي عامين على توقفها.

كما أصدرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأول مرة سنة 1933 ثلاث صحف هي (السنة، الشريعة، الصراط) كانت فرنسا (بلد الحرية والحقوق الإنسانية!) قد استقبلت هذه الجرائد الثلاث (بتوقيفها) تباعا الواحدة تلو الأخرى، ولم يمض على ميلاد كل منها أشهر، كما لم تعمر جميعها أكثر من حول واحد. ثم أعادت الجمعية الكرة من جديد فدخلت الميدان الإعلامي سنة 1935 بإصدارها جريدة (البصائر) في (شهر ديسمبر) من هذا العام، بيد أن المحتلين قد أذاقوها كسابقاتها مرارة المصادرة مرتين، إلا أنها استأنفت الصدور من بعد رحيلهم من البلاد، وهاهي ذي تواصل جهادها في الوقت الحاضر، على نهج مؤسسيها الأوائل.

وقد كان إلى جانب المنتقد والشهاب والبصائر مجموعة من الصحف الوطنية، وقد اضطلعت جميعها برسالة النهضة الحديثة في الجزائر.

وقد كانت الأبحاث القيمة والأفكار الصائبة والتوجيهات السديدة التي كان ينشرها أعلام النهضة الوطنية في الجزائر في تلك الصحف الوطنية قد أوقدت جذوة اليقظة، وأرست أسس النهضة العامة، وأحيت الأمة بعد أن كانت قد أقبرت أو تكاد، وبعثت في روحها شرارة اليقظة بعد أن أوشكت أن تخمد في صدرها جذوة الحياة، ووضعت يديها على شروط النهضة ورسمت الطريق أمامها نحو الثورة التحرر. فكانت تلك الأعمال ومثيلاتها هي المهاد إلى ثورة نوفمبر المباركة التي دكت ملاحم أبطالها الميامين حصوون الظالمين، وأجلت تضحيات شهدائها الأبرار فلول الغزاة من أرض الوطن صاغرين مدحورين.

ويدلي (شاهد القرن) الأستاذ ماك بن نبي نفسه بشهادته في هذا المضمار فيقول :« لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات (ابن باديس)، فكانت تلك الساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدر يتحرك، ويالها من يقظة جميلة مباركة!» (4)

ومما يمكن أن يخلص إليه البحث في هذه الفقرة أن العمل العلمي الجاد والجهد الفكري الأصيل ليس بضارهما وليس بناقص من قيمتها، أن ينشرا في الصحف الجادة، وكم من بحث كان أجدى وأنجع على حركة النهضة الفكرية الإنسانية وعملية تطورها العام، من مجلدات جمعت بين صفحاتها ركاما من التهويمات والأهواء، وكانت بذلك أداة في نشر الأفكار الهدامة بين أجيال الأمة.

4 ـ الإدعاء بغلبة النزعة الإنشائية على كتابات كمالك:

يزعم حضرة الأستاذ أن كتابات مالك إنما تغلب عليها النزعة الإنشائية، ويطلق حضرته هذا الحكم (بأسلوب إنشائي؛ من دون تعليل أو تحديد، أو تمثيل، فهو لم يحدد في أي الجوانب من جوانب كتابات مالك تظهر هذه النزعة الإنشائية؟ كأن يوضح هل هي بادية في مضمون تلك الكتابات، أم في صورتها التعبيرية؟

ويمكنك أيها القارىء الكريم أن تصل إلى وجه الصواب في هذه الإشكالية، من دون أن تذهب إلى أبعد مما تختزنه ذاكرة تلميذ في المرحلة الثانوية من قواعد في (علم المعاني) من (علوم البلاغة)، تمييزا بين سمات الأسلوب الإنشائي (الأدبي، وبين خصائص الأسلوب العلمي وغيره من خصائص أساليب الكتابة في اللغة العربية من نحو، وبين الموضوعات التي يصلح لها هذا الأسلوب، أو ذاك، والتي يصلح لها سواهما من الأساليب من نحو ثان.

وإن من يستحضر ذلك يدرك أن الأسلوب الإنشائي هو الصورة اللفظية الملائمة

للتعبير عن الحالة النفسية المشحونة بالانفعالات والمشاعر الوجدانية والمواقف الخطابية وما إلى ذلك، مما يتوخى من خلاله الكاتب الوصول إلى هدفه في الإثارة والإمتاع.

ويتضح مما تقدم أن هذا الأسلوب بتلك الخصائص المميزة له، إنما هو أبعد ما يكون عن الموضوعات العلمية التي تستدعي ما يتميز به الأسلوب العلمي من سمات، يأتي في مقدمتها: القرب والوضوح والرقة والتركيز وما إلى ذلك، مما يستهدف به التوعية والتوجيه، والإفادة والإقناع، وانطلاقا من هذه الحقيقة يمكن للدارس أن يطرح هذا السؤال:

أي من الهدفين السابقين، كان الأستاذ مالك المفكر يتوخى في كتاباته؟ وأي الأسلوبين أكثر ملاءمة لذلك؟

لعل من أبرز ما يميز اهتمامات مالك في كتابات أنه لا ينطلق من حالات شعورية طارئة تغذيها بعض الانفعالات الذاتية والحوافز الشخصية، بهدف التعبير عن بعض الخلجات النفسية وبعض الإثارات الوجدانية، مما يستدعي من وجوه الصياغة ما يوائم ذلك من ألوان الأسلوب الإنشائي الخطابي، وإنما كان أبرز ما تركز عليه كتاباته أنها تعالج قضايا فكرية ومسائل علمية تتسم بطابع فكري واضح، وتقوم على النظر العميق والتحليل الدقيق، وهي بذلك أبعد ما تكون عن الانفعالات والوجدانيات والأدبيات، هذه الألوان النفسية التي تستدعي من أدوات الصياغة الفنية ما يعد من أبرز ما يميز خصائص الأسلوب الأدبي (الإنشائي).

ومن ثم جاءت صورة التعبير في كتابات مالك، وأهم ما يميزها الميل إلى الألفاظ الحقيقية القريبة، والتراكيب الواضحة الدقيقة، والزهد فيما يتصل بمظاهر التأنق اللفظي، والعزوف عن استخدام الخيال والمحسنات، وغني عن البيان أن هذه الخصائص، إنما هي من بعض ما يميز الأسلوب العلمي من سمات.

وقد يصل بالأستاذ مالك في بعض الأحيان هذا الميل إلى الإكثار من استخدام خصائص هذا الأسلوب العلمي في كتاباته إلى حد بلوغه في ذلك مبلغا يضطره إلى أن يستعير في بعض كتاباته بعض المصطلحات من بعض العلوم الدقيقة (الرياضيات) وغيرها، ليقرر بذلك بعض الحقائق العلمية: النفسية أو الاجتماعية أو غيرها، وقد يجعل ذلك بعض قرائه يلقون شيئا من العسر في فهم بعض أفكاره وتحليلاته من خلال ما يغلب أحيانا على بعض كتاباته من روح علمية ونزعة عقلية وبرودة عاطفية، وغير ذلك ما يميز الطابع العلمي في الكتابة من ميل إلى التروي والأناة والدقة والتركيز.

وهل بقي بعد هذا البيان مايعطي لاراء من يزعم أن كتابات مالك يطغى عليها الطابع الإنشائي قدرا ـ ولو ضئيلا ـ من المصداقية تمكنها من الصمود أمام ما وصل إليه القارئ عن طريق التحليل والتعليل، والحجة والتمثيل، من بيان وبرهان في هذه الإشكالية.

5 ـ أشار حضرة الأستاذ إلى قضية إهداء (مالك) كتبه إلى بعض الشخصيات وكأنه يريد بذلك أن يومىء إلى شيء ما، فهل من سبيل إلى تفسير ذلك الشيء؟

يمكن الوقوف عند هذه الغمزة بدءا بالتذكير بأن مالك لم يقم بإهداء ما أهدى من أعماله لمن أهداها لهم ـ وقد أغناه المغني عن جميع الفقراء إلى اللّه ـ تزلفا وتملقا وطمعا، أي من أجل أن ينال رضى حضرة هذا أو يتملق ـ حاشاه ـ جناب ذاك، أو طمعا فيما في أيدي هذا وذاك أو فيما في أيدي من سواهما من الناس، وإنما أهدى ما أهدى لمن أهدى، رغبة منه في تقديم بعض وجوه النصح والإرشاد ـ قياما منه بواجب أمثاله من العلماء والمفكرين ـ لمن يستحق ذلك، ممن بأيديهم مقاليد أمور

المسلمين، تقديرا لمواقفهم، وتثمينا لجهودهم في حسن قيادة مسيرة الأمة وخدمة قضاياها، والغيرة على مصالحها.

وهو لم يفعل ذلك ـ على أية حال ـ من نحو اخر، تقربا بأعماله أو بمواقفه من أعداء الأمة القدامى والمعاصرين، بل ظل طوال نضاله يقف من هؤلاء الموقف الذي يشرفه ويشرف أمته توعية لها بمكائدهم، وتحذيرا لها من مكرهم، وتعضيدا لصراعها معهم.

6 ـ الزعم بأن مالك يعني بقضايا بلده أكثر مما يعني بمشكلات المسلمين:

يذهب حضرة الأستاذ إلى أن اهتمامات مالك في أعماله توشك أن تقتصر على حدود بلده الجزائر، ولا تكاد تتجاوز ذلك إلى العناية بشؤون المسلمين بالقدر المطلوب.

ويمكن أت يتركز النقاش حول هذا الحكم في الوجوه التالية:

أ ـ نبادر بالقول أن من ينعم النظر في هذا الحكم يدرك أنه لايقوى على الثبات أمام ماقد يدحضه من حقائق التاريخ ومن شواهد الحاضر، ويكفي القارىء في ذلك أن يعود إلى ما سبق أن تبينه من خلال وقوفه في هذا العمل عند مساهمات المشاركين الضيوف في الملتقى، مما يكون قد سمح له بأن يعرف من أن قراء مالك وتلامذته ودارسيه منتشرون، ليس على امتداد العالم العربي الإسلامي فحسب، وإنما هم متواجدون في غيره من بلاد العالم، وأن أفكاره وأعماله استطاعت أن ترحل إلى بعيد، فتصل إلى حيث وصلت كتائب جند الفتح الإسلامي في القرون الأولى للإسلام، من أراضي إفريقيا وأسيا وأوربا وغيرها، حاملة إلى الناس كافة رسالة الإسلام العالمية.

ب - تحسن الإشارة إلى أن مالك ليس هو الوحيد من بين أعلام الإسلام الذين حاولت دوائر الغزو الفكري في هذا العصر - وماتزال - أن تنال من مكانتهم العلمية ومن مواقفهم الجهادية وتعمل على تضييق الخناق في وجه حركة أفكارهم والتقليل من قيمة أعمالهم، وتقوم بتهميشهم والتعتيم عليهم. وممن استهدفته تلك الدوائر بذلك من الجزائريين إلى جانب مالك كثيرين، فقد فعلت ذلك مع الأمير عبد القادر قائد المقاومة الوطنية ضد الغزاة الفرنسيين، ومع قادة الثورات الوطنية المتعاقبة طوال تاريخ الكفاح الوطني من ثورة الأمير، إلى ثورة نوفمبر التحرير، ومع الأمير خالد رائد الحركة الوطنية الحضارية، وغير هؤلاء من زعماء الحركة الوطنية وقادة ثورة نوفمبر المجيدة.

لقد حاولت تلك الدوائر الاستدمارية أن تنال من سمعة هؤلاء في بلادهم وفي غير بلادهم، ولكن جميع تلك المحاولات الماكرة قد باءت بالفشل الذريع، وصدق اللّه العلي العظيم: «ليحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» (5).

ج - إن الذي يستحضر ما سبق الإلماع إليه في هذه العمل عند الحديث عن الصورة المتواضعة للحضور المحلي في هذا الملتقى، بالموازنة مع فاعلية مشاركة الضيوف فيه، يمكنه أن يلمس بوضوح أن الأستاذ مالك بن نبي كان معروفا خارج بلاده الجزائر، أكثر مما كان معروفا بداخلها، وليس من المنطقي أن يتأتى له ذلك لو لم يكن كبير العناية بشؤون المسلمين، مهموما بمشكلاتهم واضعا يده على عوامل تخلفهم وشروط نهضتهم، مشخصا عللهم وأدواءهم، واصفا لذلك ما يلزم من ضرورات الحمية والدواء.

وهل يمكن أن يكون لأفكار مالك ما كان لها من مكانة بين أهالي أكثر من إقليم في بلاد العرب والمسلمين وغيرهم، في إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا وغيرها- كما تصور جزءا من ذلك قائمة المشاركين في هذا الملتقى - لو لم تكن اهتماماته قد

تجاوزت حدود الدائرة المحلية (وطنه الصغير) إلى (وطنه الكبير؛ العالم العربي الإسلامي، إلى (وطنه الأكبر) العالم أجمع والإنسانية قاطبة؟

7 ـ يزعم حضرة الأستاذ أن مالك حاول أن يسجل في شهادة الدكتوراه تحت إشراف المستشرق (لوي ماسينيون) صاحب فكرة (فرانس إسلام) ولكنه لم يفلح في ذلك!

فماذا عن هذه (الغمزة؟) وماذا عما يريد صاحبها أن يتوخى من ورائها؟

يمكن مناقشة ذلك من الوجوه الاتية:

أ ـ لعل من أول ما يمكن أن يستخلص من هذه الرواية أن (بعضنا) اليوم في عالمنا العربي يعطي لهذه الشهادة (الدكتوراه) مكانة علمية مابعدها من مكانة من العلو والرفعة، وكأن هؤلاء يرون بذلك أن الدرجة الرفيعة في سلم المعرفة والمكانة المرموقة في فضاء الفكر والعلم لاينالها وليس جديرا بها، إلا من كان (دكتوراً!) أما من لم يكن كذلك، وكان عالما نحريرا، ومفكرا مستنيرا، وباحثا محققا، ودارسا لامعا، فإنه ـ لايمكن أن يحسب من بين حضرات (الدكاترة المحترمين الذين يكونون بتلك الشهادة، قد حازوا العلم من جميع أطرافه وأخذوا بمفاتيح الفكر من كل أبـوابـه.

وماذا يمكن أن يقال ـ انطلاقا من هذا القسطاس غير المستقيم ـ أمام ما يقرره التاريخ ويقره الواقع، من أن معظم علماء الأمة المتقدمين وبعض المعاصرين منهم قد بلغوا شأوا بعيدا على سلم العلم والمعرفة، وما كان من أحد منهم (دكتوراً!).

ب ـ لأن الأستاذ قد انفرد بهذه الرواية ولم يقل بها أحد غيره ـ فيما أعلم ـ من دارسي مالك ولا تلامذته ولا معارفه من داخل الجزائر أو من خارجها، ومن يكون صاحب هذه الرواية حتى يخصه مالك وحده بها من دون عباد اللّه؟

ج ـ يؤكد حضرة الأستاذ أنه سمع هذه الرواية من الفقيد ذاته (في أمريكا)، وليس في بلده الجزائر ، أو في غيره من بلاد العرب والمسلمين التي قضى ببعضها ردحا من عمره، وأما زمن هذه الرواية، فكان سنة 1972, أي قبل عام واحد من وفاة مالك رحمه اللّه.

وهل من دلالة لهذه المفارقة بين ذاك المكان القاصي، وهذا الزمان الداني؟

ولعل مما يمكن أن يقرب من وجه الحقيقة في هذه الإشكالية، أن بعض دارسي مالك يؤكدون أن الفقيد حاول أن يسجل في معهد الدراسات الشرقية في باريس، وليس في شهادة (الدكتوراه) كما جاء في تلك الرواية.

د ـ ومما يستحسن ذكره في هذا المضمار، أن ذلك المعهد ليس من اختصاصه الدقيق ـ فيما أعلم ـ التدريس في قسم الدكتوراه، وإنما يقتصر دوره أو يكاد ـ كما هو واضح من اسمه ـ على تدريس اللغات الشرقية، ومن ثم فلا المعهد المذكور يدرس تلك الشهادة، ولا الفقيد كان بصدد ذلك، حتى يستدعي منه ذلك البحث عمن يشرف على بحثه!

وإذن فإن الفقيد لم يكن يحاجة إلى من يشرف عليه، لا (ماسينيون) ولا غيره، وإنما كان (ماسينيون) يشرف يومئذ على إدارة المعهد السابق الذكر التي لم تسمح لمالك بالتسجيل في حدود اختصاصها (قسم الدراسات الشرقية).

بيد أن هذا الرفض شهادة لها قيمتها من هذه الدوائر التي تعرف الأستاذ مالك وأفكاره حق المعرفة، كما تدل هذه الشهادة من نحو اخر، عما يتميز به مالك مما لايروق لتلك الجهات ، من قوة شخصيته، وأصالة ثقافته، وعمق أفكاره وعظيم إخلاصه في خدمة أمته، وصدق وفائه لمسيرتها ماضيا، ولجهادها حاضرا ولتطلعاتها مستقبلا، مما يجعله يستعصي على عمليات التغريب والاستلاب، هذه العمليات التي هي من أبرز ما تسهر تلك الدوائر على إخضاع الطلبة من ابناء المسلمين

لتأثيراتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، في محاولة منها لسلخهم عن مميزاتهم الثقافية وخصوصياتهم الحضارية ، وحملهم على التنكر لهذه ولتلك، ومن ثم كانت تلك الدوائر لا تريد أن تغامر بوجود واحد مثل مالك بين طلاب معهدها، وذلك لجملة من المحاذير لعل من أبرزها هاذين المحذرين اثنين:

1 ـ أما الأول فهو إدراك تلك الدوائر أنها لا تستطيع أن تصل من مالك إلى أهدافها، وإذن فلا حاجة لها به.

2 ـ وأما الثاني فإنها تخشى من أفكاره على أهدافها، لما تعرف من قوة فاعليتها.

ويمكن أن يستخلص مما تقدم، أن عدم قبول مالك بهذا المعهد، إنما كان من عناية اللّه به وتوفيقه له، ولعله لو كان قد التحق بتلك المؤسسة لكان لذلك تأثيراته السلبية عليه، ولكان مالك الطالب بمعهد الدراسات الشرقية بباريس، غير مالك الذي صرفته عناية اللّه عن الالتحاق بذلك المعهد، وهيئته في الوقت ذاته ليتجه وجهة أخرى أسلم وأقوم، فيكون (شاهد القرن) على حلقات الصراع الذي دار بين أمته، وبين الغزاة المعتدين، دفعا للظلم، وذوداً عن الحق وأن يكن من نحو اخر، مؤرخا لما قام به الغرب من حملات القمع والإرهاب، والتفرنج والاستلاب، ضد أمم الشرق في العصر الحديث.

وقد تحدث كثير من الدارسين عن الآثار الخطيرة التي لحقت بكثير من أبناء المسلمين المنتسبين للتعليم الأجنبي، وكان من بين من أشار إلى ذلك من الباحثين الجزائريين الإمام عبد الحميد بن باديس [6].

وقد قسم الإمام هؤلاء المتعلمين إلى أقسام ثلاثة، كانت الأمة قد خسرت منهم الثلثين، وسلم من أدواء الاستلاب الثلث الباقي، وكان من بين السالمين من أفراد ذلك الثلث، الأستاذ مالك وأمثاله.

8 ـ المحاضرة (موضوع هذا النقاض) لم توزع على الحضور:

كانت مداخلة حضرة الأستاذ من بين الأعمال التي لم توزع على الحضور، ومن ثم فقد كان اعتماد الكاتب في تحرير هذه الكلمة حولها على السماع وحده حين إلقائها، ويمكن أن يكون قد فات الكاتب شيء من المحاضرة.

ونبادر بالقول أن الأستاذ لم يرسل محاضرته إلى الهيئة المنظمة للملتقى قبل مجيئه، كما أنه ل يسلمها إلى المشرفين على الملتقى حين مجيئه، مع أن المحاضرة كانت بين يدي حضرة الأستاذ مكتوبة وهو على المنصة وقد ألقاها قراءة، فما المانع إذن من تسليمها في الحين للمعنيين لتطبع ثم توزع تعميما للفائدة؟

إن الظاهرة مدعاة للتساؤل، وليس لها من جواب شاف في الوقت الراهن، وإلى أن يحصل شيء من ذلك، يمكن النظر في ذلك من هذه وجوه:

أ ـ كيف بمثقفينا (الكبار) أن تسمح لهم مكانتهم العلمية بأن يسافر أحدهم للمشاركة في ملتقى دولي فيطوي في طريقه إلى ذلك الاف الأميال، دون أن يكون قد أرسل عمله مسبقا بإحدى وسائل الإتصال الحديثة؟ تلك الوسائل التي هي في حقيقتها ليست من ابتكارنا، وإنما صنعها لنا غيرنا، فأصبحنا نملكها في إطار (ظاهرة التكديس وليس بفعل عملية البناء)، كما فعل اليابانيون وغيرهم، ممن وقفوا من حضارة الغرب موقف (التلميذ) من الأستاذ، وليس كما فعلنا نحن ـ وما نزال ـ بوقوفنا من تلك الحضارة موقف (الزبون) المترف المسرف الجشع الذي لايتحرك في غالبية أحواله في هذا المضمار إلا ليشبع شهواته ونزواته، أكثر مما يستهدف شيئا اخر!

وكان الأستاذ مالك قد تناول (ظاهرة التكديس) هذه بالدراسة في بعض كتبه[7] وعالجها من بين ما عالجه من مشكلات الحضارة التي تتخبط في (معضلاتها) أمتنا ـ وماتزال ـ والتي بلغنا فيها (شأوا بعيداً!) وضربنا فيها للناس (المثل!).

وقد أمسينا نملك (بفضل) تلك الظاهرة بعض تلك الوسائل الحديثة، ولكن كثيرا منا ـ مع الأسف ـ يزهد في استخدمها، ومن لايزهد في ذلك لايحسن استخدامها، وكلا الاحتمالين وارد، كما تصوره الوقائع والسلوكيات اليومية في الميدان.

ب ـ إن من نافلة القول التذكير بأن ما يجري به العمل في مثل هذه الملتقيات العادية منها، بله الدولية، أن يرسل المحاضر عمله مسبقا حتى يطبع ويوزع على الحضور قبل إلقاء المحاضرة أو أثناء ذلك، وإن هذا ما يلتزم به (الاخرون) أولئك الذين غلبونا على أمرنا فأذلونا في عقر دارنا بما تميزوا به في جميع مظاهر حياتهم من استخدامهم للعقل والمنطق في أعمالهم وأبحاثهم وإقبالهم على طلب العلم بمنهجية وجدية، والتزامهم بالنظام واحترامهم الوقت، وإتقانهم العمل وغير ذلك من مقومات السلوك الحضاري الذي أخذوا به، فأخذ بأيديهم على طريق المدنية الحديثة، ومكنهم من السيطرة على اليات العلم الحديث، وشجعهم تفوقهم المادي هذا على الهيمنة على شعوب البلاد الضعيفة والأمم المستضعفة (كحال أمتنا اليوم). وقد كنا قد سبقنا بالأمس غيرنا إلى ذلك السلوك الحضاري وإلى المدنية والإنسانية، يوم أن كنا نمثل العالم الأول، بما أكمل اللّه لنا من تعاليم ديننا وأتم علينا من نعمته ورضي لنا الإسلام شرعة ومنهاجا. فأين نحن من ذلك؟ وقد أصبح فينا من يخجل بأن يجهر بالالتزام بما جاء به ديننا الحنيف من تعاليم ومبادىء وفضائل، وأمسى في ذلك من الزاهدين، فكان من نتيجة ذلك أن تراجعنا عن مكانتنا التي كانت لنا في مقدمة الأمم الحية إلى المكانة التي أمسينا جديرين بها، مع المتخلفين القاعدين في مؤخرة الأمم.

ج ـ قد يحدث أن يتعذر على أحد المشاركين في إحدى الملتقيات أن يرسل

عمله قبل قدومه إلى الملتقى، فيمكنه في هذه الحال الاستثنائية أن يصحبه معه حين مجيئه فيطبع ويوزع في الوقت المناسب، ولكن الذي كان من حظ هذه المحاضرة، والذي قام به صاحبها، لا هذا ولا ذاك والله المستعان.

د ـ ومما يحسن التذكير به أن هذا السلوك لم ينفرد به الأستاذ القادم من أرض الكنانة وحده وإنما شاركه فيه غيره من بين أهل الدار، مما يمكن أن تقاس المسافة بين إقامتهم، وبين مقر الهيئة المنظمة للملتقى بالأمتار، وليس بالاف الأميال...!

وإذن فقد تساوى في هذه الظاهرة (مثقفونا) في مغربنا وفي مشرقنا، وقد أمسينا في ذلك سواء ، وقد قال من قبل شوقي:

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الهم شرق (8)

ويبدو أن هذه المقولة ماتزال صحيحة فينا، ولعلها أمست أكثر انطباقا على أوضاعنا وقد ازدادت هذه الأوضاع على أرض الواقع سوءا، كما ازدادت أمتنا على الناس هوانا.

وإنه لمن المنطقي أن يترتب على هذه الزيادة في معنى التردي زيادة في مبنى تلك المقولة ولاشك أن شوقي ـ رحمه الله ـ لو كان بيننا في هذا الزمان، لفعل ذلك ولأمست تلك المقولة حينئذٍ ـ مع الاعتذار للخليل بن أحمد ـ (ولكن كلنا في الهم شرق وغرب!!).

فأين نحن بعد، من المنهجية والروح العلمية والفاعلية والحركية، والالتزام بالنظام وحسن استثمار الوقت والجهد، وغير ذلك من الفضائل السلوكية والقيم الحضارية التي غرسها في قلوبنا وفي عقولنا، في أفعالنا، وفي أقوالنا، وفي جميع مظاهر حياتنا منذ فجر الدعوة الإسلامية ديننا الحنيف، وتمثلها أفعالا وأقوالا في الواقع اليومي المعيش أوائلنا الأطهار، وسار من بعدهم على هذا النهج عبر التاريخ الأعلام الثقاة، ومن بينهم الأعلام الرواد في عصرنا الحاضر هؤلاء الذين قضوا أعمارهم ـ والفقيد

مالك واحد منهم ـ ينادون بالالتزام بتلك السلوكيات الحضارية ويتمثلون هم أنفسهم بها في أفعالهم ميدانيا، ويحرصون على غرس بذورها في ذهنية أبناء الأمة وفي سلوكهم بالقول وبالفعل ، بالنصيحة وبالقدوة، بينما اكتفى بعض مثقفينا المعاصرين بالتغني بها وبمطالبة غيرهم (الأحفاد) بالالتزام بها، وهم عن بعضها معرضون، ولعلهم لها ناكرون.

هـ ـ ويحسن التذكير بعد أن المحاضرة (موضوع النقاش) في هذه الفقرة، إنما كان عنوانها:

(من القصد إلى الفعل..) فهلا تساءلت أيها القارىء الكريم بعد هذا الذي مر بك من وجوه الحوار حول هذه المحاضرة: أين نحن من ذلك القصد؟! وأين نحن من ذلك الفعل؟!

خامسا ـ مكانة اللغة العربية في أشغال الملتقى: نبادر بالقول أن لغة الحوار في هذا الملتقى لم تكن واحدة، وإنما كانت لغات ثلاث هي :

العربية والفرنسية والانجليزية.

وكان أهل الدار قد زاوجوا بين العربية والفرنسية، كما زاوج الإخوة من بعض البلاد الإسلامية مابين العربية والإنجليزية، وأما الإخوة من البلاد العربية فقد تميزوا من بين الحضور، بأن كانت جميع محاضراتهم باللسان العربي المبين، وأما المعقبون ـ وقد كان معظمهم من أهل الدار ـ فقد كانت أغلب تعقيباتهم بالعربية ماخلا واحدة، فقد أبى صاحبها إلا أن يخرج على هذا الإجماع باختياره لتعقيبه (اللغة الإنجليزية) على محاضرة الأستاذ الدكتور محمد نور منوطي من (ماليزيا)، وقد كانت محاضرته بهذه اللغة، فزاد هذا المعقب بذلك من حظوظ اللغات الأجنبية في هذا الملتقى، ولو كان تعقيبه بالعربية لكان بمكنته أن يسجل بذلك هدفين اثنين:

أما الهدف الأول فيسجل به ما أراد أن يسجل من ملاحظ باللسان العربي،

فيكون بذلك منسجما مع نفسه ومع هويته، ومع الملابسات الزمانية والمكانية والأجواء النفسية والموضوعية للملتقى.

وأما الهدف الثاني فقد كانت أمام المعقب فرصة ثمينة كان حريا به أن يهتبلها، فيعقب بالعربية ليلفت بذلك نظر الأستاذ صاحب المحاضرة، إلى أن من المستحسن أن تكون لغة التخاطب والحوار في هذا المقام وبين الإخوة ـ لتحقيق أكبر قدر من الانسجام مع الجو العام لهذه المناسبة ـ باللسان الجامع بينهم، وفي كثير من أحوالهم: عقديا وتاريخيا، ثقافيا وحضاريا، في ماضيهم وفي حاضرهم وفي مستقبلهم، وبخاصة أن الأستاذ المحاضر (الضيف) كان يحسن العربية، وقد برهن على ذلك من خلال استخدامه لها مرات أثناء إلقائه محاضرته.

ومما يمكن استخلاصه في ختام هذه الفقرة مما يتصل بهذا الموضوع أن العربية كانت لسان الكلمات التشريفية في البدء وفي الختام في هذا الملتقى، كما كانت معظم التعقيبات بها كذلك ولو ما كان ذلك، لكانت مكانة العربية في هذا الملتقى مرجوحة أمام غيرها من اللغات الأخرى وفي عقر دارها وبين أهلها، ويالها من انتكاسة نكراء كانت تكون، لو تحقق ذلك لاسمح اللّه!

وغني عن البيان أن اللغة ـ أيا كانت ـ هي جزء أصيل من بين المقومات الثقافية والخصوصيات الحضارية لأية أمة، ومن ثم فالمحافظة عليها والاعتزاز بها وإيثارها على غيرها في لغة التخاطب والبحث وفي سائر الاستعمالات، إنما ذلك يعد من بين أبرز الواجبات في عنق كل فرد من أفراد (أمة القرآن).

وقد أصر بعض إخواننا ممن لم تكن العربية لسانهم الأصلي أن يلقوا محاضراتهم بالعربية وكأنهم أرادوا بذلك أن يعبروا عن حسن إدراكهم وعمق وعيهم لتلك الصلة العضوية الوثقى التي تربط بين ذلك اللسان وبين قرآنهم (كتاب عقيدتهم وشريعتهم) وبين (سنة نبيهم) البيان الصادق الأمين لذلك الكتاب المبين.

وقد يعذر إخواننا هؤلاء ممن لم تكن العربية لغتهم الأصلية أن يتخذوا من اللغات الأجنبية أداة لتوصيل أفكارهم للاخرين، أو لنقل ما عند هؤلاء الآخرين من علوم ومعارف ومدنية إلى لغاتهم.

وأما من كانت العربية لغتهم الأصلية، فيحسن بهم أن تكون جميع استعمالاتهم اللغوية: حوارا وكتابة بها، وليس بمستحسن منهم أن يهجروها ويستمروا في هجرها ـ وهي لسان قومهم ـ في مختلف استعمالاتهم إلى لغة أخرى سواها، كما فعل ويفعل ذلك بعض الكتاب في عالمنا العربي الإسلامي في هذا العصر، وبخاصة منهم بعض أدباء المغرب العربي، وبوجه أخص بعض الجزائريين الذين تعذر عليهم القدرة على التعبير عن حاجاتهم بلغتهم للظروف الاستثنائية التي كانت بلادهم قد مرت بها في فترة الاحتلال، ولم يشهدها ويمر بها في حدتها وقسوتها وطول سنيها أي بلد غيرها من بلاد العرب والمسلمين، وذلك لما كان من اثار الغزو الفرنسي الذي فرض على شعبها سياسة القهر والهيمنة، ورمى بأهلها في غياهب التجهيل والأمية وحرمهم من أبسط حقوقهم في العلم والمعرفة، وقام بتضييق الخناق على لغتهم وثقافتهم، وحاول استلابهم وتغريبهم شيئا ليس ذا بال من لغته بحيث لايساعدهم ذلك على فتح أبواب العلم من أمامهم، والولوج إلى ساحاته والإفادة منها، كما لا يمهد لهم الطريق إلى ميادين المعرفة فاضطر بعض الكتاب الجزائريين ـ في هذا الحال ـ إلى استخدام لغة المحتل للتعبير عن قضايا شعبهم والدفاع عن حقوقه ومواكبة حركة جهاده، وكان من بينهم: الأستاذ مالك، فماذا عن ذلك؟

سادسا ـ الأستاذ مالك واللغة الفرنسية: كان مالك كبعض الكتاب الجزائريين قد حاول أن يوظف اللسان الفرنسي كوسيلة من وسائل الجهاد في معركة أمته

وشعبه ضد الغزاة المعتدين، في الوقت الذي كان فيه معاصروه من أعلام النهضة الوطنية يكتبون أعمالهم بالعربية، ويمكنون لها بجهودهم وتضحياتهم في حياة الأمة: يؤسسون المدارس لتعليمها، ويصدرون الصحف لنشرها ويقتحمون ساحات الصراع وميادين الجهاد، دفعا لغيلة الظلم والضيم عنها.

ومما يمكن الإشارة إليه بدءا في هذا المضمار، أن مالك كتب أعماله بالفرنسية، بالرغم من أنه لم يكن من أولئك الكتاب الجزائريين الذين سبقت الإشارة إلى أن الاحتلال حرمهم من تعلم لغتهم العربية، وإنما كان يحسن العربية إلى جانب الفرنسية، فهو أحد طلبة (المدرسة الفرنسية الإسلامية) بقسنطينة، وهي واحدة من ثلاث مدارس أسسها المحتل 1850 م خدمة لبعض أغراضه، كان من بينها ، تخريج متعلمين جزائريين يمكن توظيفهم كأعوان في المحاكم ومترجمين في المصالح الإدارية الحكومية، ومعلمين في المدارس الرسمية، فكانت هذه المدارس لذلك تجمع في مناهجها مابين تعليم الفرنسية والعربية، وكان طلابها من ثم من مزدوجي اللغة، وكان مقر كل واحدة من هذه المدارس الثلاث في واحدة من هذه المدن الثلاث في الجزائر يومئذ، وهي (الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان).

ومما يمكن الإلماع إليه في هذا الصدد أن مالك بالإضافة إلى أنه كان يحسن العربية تعلما فقد كان ابن بيئة عربية خالصة، فقد قضى معظم مراحل حياته، وبخاصة في هذه الأطوار الثلاثة : (النشأة والتكوين والتوظيف) مابين مدينة قسنطينة، مدينة العلم والعلماء، عاصمة النهضة الثقافية في الجزائر، وبين (تبسة) مدينة الشيخ المجاهد الشهيد العربي التبسي نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومدير معهد عبد الحميد بن باديس المؤسسة الأولى الوحيدة للتعليم العربي الحر يومئذ في الجزائر، وفي مدينة (افلو) بالجنوب الجزائري، حيث كان يعمل في المحكمة الشرعية.

وقد أعانه هذا الحال: بيئيا وتكوينيا ووظيفيا، على تقوية معارفه باللسان العربي.

وإذن فإن عوامل عديدة: بيئية وتعليمية واجتماعية تضافرت على تنشئة مالك نشأة عربية خالصة، تكون ـ بلا شك ـ قد ساعدت على تحسين مستوى مؤهلاته العلمية في هذا الميدان.

ومما يلفت النظر إليه في هذا المضمار، هذ المفارقة في حياة مالك بين مواصفات الوسط البيئي والثقافي والاجتماعي الذي قضى فيه معظم مراحل حياته، وبين ممارسته اللغوية بخاصة في ميدان الكتابة، باستعماله فيها غالبا اللغة الفرنسية بصفتها الأداة المفضلة لديه للتعبير عن أفكاره وطروحاته في هذا المجال، على خلاف ما كان يحرص عليه من استعماله للعربية في معظم حواراته ومحاضراته العامة التي كان ينظمها داخل الجزائر أو خارجها في بعض البلاد العربية وبخاصة منها مصر التي كان يقيم بها أثناء الثورة، وسوريا ولبنان اللتين كان يتردد عليهما في هذه الفترة.

وقد كان صاحب هذه الكلمة ممن كانوا يحضرون بعض محاضراته التي كان ينظمها في السنوات الأولى للاستقلال إلى وفاته ـ رحمه اللّه ـ في بداية السبعينات.

وقد كان الفقيد في هذا الميدان بما تميز به من فهم لخصائص العربية وحسن استخدامه لها الاستخدام الصحيح، وتوظيفه لها التوظيف الهادف، وليس التوظيف الإنشائي المثير. وبما وهبه اللّه ـ بالإضافة إلى ذلك ـ من قدرة فائقة على حسن إدارة الحوار بينه وبين من يستمع له بصورة تجعل هؤلاء المستمعين مشدودين إليه بقوة، ويصغون إلى أحاديثه وحواراته برغبة كبيرة، وباهتمام بالغ، وبهدوء تام..

وكان الفقيد بهذه الخصائص وبما تميز به ـ إلى جانب ذلك ـ من عمق أفكاره

وبعد نظراته ومنهجية تحليلاته، فارس ميدان في مضمار الفكر والمعرفة من فرسان أمتنا، في هذا الزمان..

وتبقى هذه الإشكالية التي تعكس ظاهرة سيطرة الفرنسية على كتابات مالك بوجه خاص - وهو الغيور على الإسلام وعلى لغة الإسلام العربية - تحتاج إلى شيء من الدرس والتحقيق وشيء من التعليل والتفسير.

ولعل الزمان يسمح بأن يأتي من يملك ما يساعد على التعليل الصحيح لهذه القضية فيفيد غيره بذلك.

وحتى يحين ذلك يمكن الاستئناس بأن من بين من يملك مايساعد على التعليل الصحيح لهذه القضية فيفيد غيره بذلك.

وحتى يحين ذلك يمكن الاستئناس بأن من بين الدوافع التي جعلت مالك يكتب معظم أعماله بالفرنسية لا العربية إدراكه أن معظم أعلام النهضة الوطنية من معاصريه في الجزائر كانوا يتوجهون بالخطاب إلى المحتلين ذودا عن حقوق الأمة باللسان العربي، وأن الذين يستخدمون منهم في هذا المضمار اللسان الفرنسي قليلون، فلعل هذا العامل من بين الأسباب التي جعلت الأستاذ مالك يرغب في تدعيم صف هذا الفريق، بهدف توصيل صوت أمته إلى الغزاة بلسانهم فلعلهم بذلك يكونون أكثر وعيا لمغزى هذه الرسالة فيرتدعون عن غيهم ويكفون عن مظالمهم ويبادرون بالاعتراف بحقوق أهل الحق فيعطونهم حقوقهم، وعسى أن يكون هذا الدافع الوطني الوجيه أو شيء قريب منه من بين الدوافع التي حملت مالك في تلك الفترة أن ينتهج في أعماله هذا المنهج، ومما يمكن أن يدعم هذا التعليل أن مالك قد كتب بعض أعماله فيما بعد الاستقلال بالعربية وترجم إليها بعض ما كان قد كتبه من قبل بغيرها.

مالك النموذج المحتذى: وعسى أن تدفع الروح الوطنية والغيرة على لسان الأمة أولئك الذين مايزالون منا إلى اليوم يصرون على اتخاذهم الفرنسية أداة للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، أن ينتهجوا هذا النهج الذي رأينا الأستاذ مالك قد انتهجه في اخر حياته، بانتقاله في كتابة أعماله من الفرنسية إلى العربية، فيكون لهم مالك النموذج المحتذى على هذا الطريق.

وإنه ليس من المنطقي في شيء، ولا من الوفاء لأمتنا، ولا من الاعتزاز بشخصيتها، وأن يستمر بعضنا من الذين كانوا يتعاطون صنعة الكتابة في فترة الاحتلال، ومن اتخذهم من بعد من جيل الاستقلال قدوة له في هذا المضمار أن يستمروا في تدبيج أعمالهم وتنميق عباراتهم باللسان الفرنسي إلى اليوم، أي بعد ما يزيد على أربعين حولا، على استعادة شعبنا سيادته الوطنية وإجلائه فلول الغزاة مدحورين من على أرض الوطن وتطهيرها من رجس الهيمنة التغريبية، ليس من المعقول في شيء أن يستمر بعضنا من بني جلدتنا بعد هذه المدة يجاهرون بالتنكر للسان قومهم والاستخفاف به ويفاخرون في الوقت ذاته بلبوسهم عباءة التفرنس والتغريب توددا (لأصدقائنا التاريخيين) على الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط ويعبرون عن مكنون صدورهم، وفيض مشاعرهم، وخلجات خواطرهم بذلك السان وهم فخورون مزهوون..!).

وأحسب أن ذلك لايمكن قبوله، كما لايمكن تفسيره إلا باستمرار وقوع أولئك القوم من ؟بني جلدتنا) تحت عامل مؤثرات دوائر الغزو الفكري والاستلاب الثقافي والتبعية اللغوية وغير ذلك، مما يدخل في هذه الدائرة ويحوم حول هذا الحمى، مما يدحض بقوة وواقعية وموضوعية دعاوى ذلك الحياد اللغوي المزعوم!!

وإنه لمن نافلة القول التذكير في هذا الصدد لمن يتذكر وتنفعه الذكرى، أن اللسان للجنان ترجمان، وأي ترجمان!

سابعا ـ الجانب التنظيمي في الملتقى : يمكن القول أن سير أشغال الملتقى قد كان عاديا، فقد قام المشرفون على الناحية التنظيمية بتوزيع معظم محاضرات المشاركين على الحضور، كما حاولوا أن ينوعوا من فقرات برنامج الملتقى فأدخلوا الى جانب المحاضرات عرضا مصورا حرص أصحابه على أن يرصدوا بعض الجوانب من سيرة الفقيد مالك، وبعض النواحي من نشاطاته العلمية، وأن يعرفوا ببعض أعماله وأفكاره، وقد كان ذلك مبادرة طيبة والتفاتة حسنة من المشرفين على الملتقى، إلا أن المقصد منها لم يتحقق على الوجه المرغوب، وذلك لما تخلل ذلك العرض من رداءة الصوت، وضبابية الصورة، الأمر الذي فوت على الحضور فرصة الإفادة من ذلك مع ضياع بعض من وقتهم.

كما تخلل سير أشغال الملتقى في بعض فقراته شيء من الاختلال وشيء من الملل، وشيء من الانفعال.

أما الاختلال فقد حدث بخاصة أثناء معالجة عملية نقل محاضرة الأستاذ الأمريكي ALLAN CHRISTELOW (الغائب الحاضر) عن طريق شبكة الاتصالات العالمية، وقد استمرت هذه العملية جارية بعض الوقت، ولما لم يتحقق المطلوب منها وطال الانتظار وضاع بعض الوقت، قرر المنظمون حينئذ أن يقرأ أحد الباحثين (عبد الرحمن بن عمارة) مداخلة الأستاذ الأمريكي (الحاضر الغائب) بالنيابة عنه، فكان ذلك، وقرأت المداخلة بالفرنسية، وهي اللغة التي كتبت بها، مما زاد في توسيع دائرة استعمال تلك اللغة في هذا الملتقى.

وكانت محاولة نقل تلك المحاضرة جارية في الوقت الذي كان فيه الحضور يستمعون إليها وهي تلقى بالنيابة، فصبروا على ذلك حتى أتى ملقيها على نهايتها، فطلب رئيس الجلسة حينئذ من المحاضر التالي في برنامج الملتقى أن يلتحق بالمنصة ليلقي محاضرته، فاستجاب الأستاذ المعني لذلك، ومضى مسترسلا في

عرض ورقته، وظلت في هذا الوقت محاولة الاتصال بالأستاذ الأمريكي مستمرة، وما كاد يصل ذلك الأستاذ المترسل في محاضرته من على منصة الملتقى إلى ختامها حتى تمت عملية الاتصال بالأستاذ (الغائب الحاضر)، فأطفأت الأضواء ليسمع ويرى من في القاعة هذه المحاضرة للمرة الثانية، ويكون بذلك المنظمون قد أبوا إلا أن يسمعوها للحضور مرتين اثنتين في جلسة واحدة، مما يبرز بوضوح ـ لسبب من الأسباب ـ اهتمامهم البالغ وعنايتهم الفائقة بهذه المحاضرة، بالرغم مما كان قد تسبب فيه ذلك التكرار من وجوه الاختلال وعوامل الرتابة، ومسببات الملل وضياع الوقت..!

أما الانفعال فقدكان بسبب ما طرأ من خروق لنظام سير بعض جلسات الملتقى، مما جعل بعض الضيوف حفاظا على النظام وحرصا على حسن استثمار الوقت، يعبر عن امتعاضه من تلك التصرفات، ويبين الرأي الصائب والوجه الحسن في ذلك. فزاد ذلك في انفعال أولئك المنفعلين وكاد ذلك أن يفقدهم شيئا من السيطرة المطلوبة على توازنهم النفسي..!

ثامنا ـ الخاتمة:

لقد تميز هذا الملتقى عن غيره مما ألفناه، في مختلف النشاطات المماثلة، بما حفل به من حوار مثمر، ونقاش جاد، وعطاء متنوع.

ولاشك أن يكون الحضور الكرام قد شعروا بذلك، وبغيره مما كان يعبق في أجواء الملتقى من شذا الأفكار النيرة الرشيدة، ومن عبير الاراء القيمة السديدة.

لقد كان الملتقى غنيا بوفرة المشاركين فيه، غنيا في طروحاته، غنيا في تطلعاته...

وقد تحقق له ذلك ـ ولاشك ـ بما حرص المجلس الإسلامي الأعلى على توفيره من إمكانات وبما بذل من جهود، وبما أبدى من اختيار، وبما عبر عنه من وفاء لأعلام

الأمة بإحيائه هذه الذكرى الثلاثين لرحيل الأستاذ المفكر مالك بن نبي، عليه رحمة اللّه ورضوانه.

وسيكون لهذا المجلس الموقر فضل أكبر، وجميل أعظم، وذكر أطيب وأبقى إذا استطاع أن يجسد في الواقع الميداني الملموس ما نصت عليه توصيات الملتقى وبخاصة منها تلك التي تؤكد على جمع اثار الأستاذ الفقيد مالك بن نبي ـ رحمه اللّه ـ ودراستها ونشرها...

وإن ذلك لمن أعظم الأعمال التي تحي بها الأمة ذكرى واحد من عظمائها، وتجل سيرته وتعتز بمواقفه، وتخلد اثاره.

وإن من بقي من (جيل مالك) ومن أبناء مالك) ومن (أحفاد مالك) في وطنه الصغير (الجزائر) وفي وطنه الكبير (العالم العربي الإسلامي) وفي وطنه الأكبر (الإنسانية كافة)، إن جميع هؤلاء إلى ذلكم لمنتظرون...

واللّه ولي التوفيق

الهوامش:

1 ـ تنسب هذه المقولة للإمام مالك بن أنس (رضي اللّه عنه)

2 ـ الآية: 114 سورة طه.

3 ـ ابن باديس: مجلة الشهاب ج1 م 5 (أفريل: نيسان 1935)

4 ـ مالك بن نبي: شروط النهضة ط 3 ـ ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين ـ دار الفكر دمشق 1969 ـ ص 30.

5 ـ الاية : 8 سورة الأنفال.

6 ـ ابن باديس: جريدة البصائر ع : 109 (22 أفريل : نيسان 1938)

7 ـ مالك بن نبي: شروط النهضة (مصدر سابق) ص : 57

8 ـ أحمد شوقي: الوشقيات ط 10 ـ دار الكتاب العربي بيروت 1984 ج 2 ص76.

د / محمد بن سمينة جامعة الجزائر